للا السعيدي خارج أسوار «الحريم»

في «غاليري كاشيا هيلدربراند»، تعرض التشكيلية والفوتوغراف المغربية أعمالها من بينها لوحة «حريم» التي تختصر تجربتها الفنية. إنّها تنتشل المرأة من الخضوع والحمولة الجنسية التي دأب الفنانون المستشرقون على رسمها على أجساد النساء.

للا السعيدي، «رصاص»، 2012، 101.6 × 76.2 سنتم، بإذن من «غاليري كاشيا هيلدربراند»

نساء للا السعيدي (1956) جميلات ويانعات. يستلقين على أرائك كأنهن من حور سحر شرقي قديم. لكنهن أيضاً يكسرن أفق التلقي المعتاد في ما يخص المرأة الشرقية. هذا بالضبط ما تستدعيه الفنانة في أعمالها وهي تنشط الذاكرة، مستعيدة بذلك لقطات من الأساطير المرافقة للشرق. تستعيدها لا كي ترسخ فكراً استشراقياً، بل كي تنتج مناخاً خاصاً. صحيح أن الأخير يستحضر أشكال وخطوط الفنانين المستشرقين وإضاءاتهم، لكنه يعيد تملّك المرأة العربية، ومنحها طراوة جديدة. الصورة أداة للا السعيدي التي تستعيد بها ملامح المرأة المشرقية وتمنحها سلطة على مُشاهد العمل الفني. الفنانة المغربية التي تعرض أعمالها في «غاليري كاشيا هيلدربراند» ضمن «فن أبوظبي»، تُخرج المرأة من المعنى المرتبط بالحريم والملتبس بين الخضوع وحمولة جنسية دأب الفنان المستشرق على رسمها على أجساد النساء.

تستعيد الفنانة المرأة لتفكك الأيقونة، وتجعلها موضوعاً جديداً يدخل المرأة العربية إلى حيز مخالف لما عهدناه عنها. هو إذا شكل من أشكال التحرر من الصورة النمطية التي ألصقتها أعمال مستشرقين كثر منهم على سبيل المثال لا الحصر الرسام الفرنسي أوجين دولاكروا. فنانون أجانب تسللوا إلى حميمية «الحريم» في القرن التاسع عشر، وخلقوا أعمالهم الفنية انطلاقاً من أوضاعهن في مساكنهن.

للا السعيدي فنانة تشكيلية وفوتوغرافية، تعالج أعمالها المرأة العربية في القرن التاسع عشر وحضورها في الأعمال الاستشراقية. رغم غربتها الطويلة بعيداً عن المغرب، تظل هذه الفنانة مشغولة بالمرأة العربية، وحضورها في العمل الاستشراقي. هكذا تقدّمها في شكل جديد، فتمزج بين الخط العربي والمرأة، لتجعلها مائلة وغائبة في الآن ذاته. مائلة بحضورها القوي في العمل، وغائبة بتمنّعها عن سلطوية ذكورية تستبيح الجسد النسائي.

هكذا، تقارب أعمال للا السعيدي الجندر، وأوضاع المرأة بلا ضجيج. إنّها تسائلها من دون شعارات براقة. تضع نظرتها قبالة المتلقي، وهي نظرة كافية للتعرف إلى امرأة مختلفة عن المعهود في أعمال فنية يقترحها خيال الرجل الذي له ما له من حمولة ذكورية. هكذا تظهر نساء يضعن الحجاب حيناً، ويخفين ملامح وجوههن أحياناً. يظهرن النذر القليل من أجسادهن، لكن أنوثتهن طاغية. نساء السعيدي أمازونيات بنكهة عربية. يفككن النظرة الغربية إلى المرأة العربية، ويعدن بفجر جديد للأنثى الشرقية.

في منظور السعيدي، يحتل الفضاء مكانة خاصة. تحفظه عبر الصورة أساساً وأيضاً عبر اللوحات. وضعيّات النساء تشغل الفضاء، وترتبه لتخلق نوعاً من المسافة بين الواقع والمتخيل. تصير النساء امتداداً للخلفية وعنصراً لا يتجزأ من باقي العمل. إلى جانب الفضاء المتخيل، يحضر الفضاء الواقعي، عبر استعارات تعود بالزمان إلى الوراء حيث الماضي وطفولتها المغربية التي فقدتها، لكنها تظل ماثلة في ذهنها كما تؤكد. لقد تربّصت بتفاصيل المكان الأوّل، واستعادت المرأة المغربية، كما في معرضها «نساء من المغرب».

سيرة

عاشت للا السعيدي في المغرب وتنقلت بين المملكة العربية السعودية وأوروبا والولايات المتحدة الأميركية. درست في بوسطن وحصلت على دبلوم في الفنون الجميلة عام 2003 وآخر في التصوير الفوتوغرافي، وقبلها، درست في كلية الفنون الجميلة في باريس بين 1990 و 1994. علماً أنّها تقيم اليوم في نيويورك.

في أعمال للا السعيدي يحضر الخط العربي أيضاً. الكاليغرافيا تحيط أجساد النساء، كما لو أنّها سور يمنع عنهن كل شر، بينما تغيب أجساد الرجال بشكل كلي. الكلمات تمنح ولو مجازاً صوتاً للنساء اللواتي يحضرن في أعمالها. بالحناء، ترسم السعيدي الكلمات، ومعها تعزل نساءها في أسرارٍ حميمية عزيزة عليها. هكذا، يصير فضاء المرأة الخاص مسيجاً بكلمات غير مفهومة، لكنها تحفظ المرأة في منطقة أمان لا تدركها إلا المرأة الملاحقة بنظرة الرجل المسكون بفكرة تملّكها. وهنا تحقق جزءاً من المعادلة الصعبة: العودة بالمرأة إلى فضائها القديم الخاص الذي أخرجتها منه التحولات التي عرفها العالم العربي.

هناك من ينتقد السعيدي متهماً إياها باختزال للمرأة العربية في صورة «الحريم»، خصوصا أنّها تصوّر فضاء تقليدياً رتيباً ، وتتوقف عند تعبيرات قديمة لم يعد لها وجود في الواقع. لكنّ آخرين يرون في هذه الأعمال ذاتها انتقادا لهذه النظرة المختزلة إلى المرأة. كأنّ الفنانة تستخدم النظرية ما بعد الكولونيالية لتفكيك كل الأفكار النمطية (العربية والغربية على حد سواء) المضطهدة (أحياناً من دون وعي) للحضور الأنثوي داخل الفضاء العمومي. بوضع النسوة في فضاء العرض، تكسر السعيدي هذا الأفق. فهي هنا تجعل المرأة في صف المواجهة المباشرة مع عين المتلقي مهما كانت جنسيته أو مرجعيته الثقافية، وتخترق بنسائها مفهومه الذي كوّنه المخيال الغربي. هكذا تنجح الفنانة المقيمة في نيويورك، في وضع المرأة العربية على سكة جديدة. سكة تقودها نحو التحرر من سلطة الذكورة مهما كانت جنسيتها وشروطها أيضاً.